المحاضرة رقم 03: قضايا الآداب العالمية المعاصرة.

الأدب وحقوق الإنسان توأمان فهما يسيران جنباً إلى جنب، لكن ليس دون تفكير أو بانقياد أعمى وإنّما بكثير من الانتباه والتروي، فكل أدب مبدع هو بالضرورة إنسانيّ النّزعة، وحقوق الإنسان معروفة بالفطرة، والتلازم بينهما هو شرط الإبداع واكتمال الصّورة.

الأدب العالمي وقضايا العصر:

1- الحرب:

كلّ آداب الشعوب وفي مختلف العصور خصوصا في القرن الأخير أدانت الحروب والقتل والتمييز العنصري والتّعذيب في السّجون... وسجّلت بطرق مختلفة أبشع صور انتهاكات حقوق الإنسان هذه، «وعندما نبحث في أقدم نصوص الأدب العالمي في الغالب نرى أنّ الحروب القوميّة والإقليميّة لعبت دورا مباشرا في سرد الرّوايات الأدبيّة في تلك الفترة، وتعتبر ملحمتا (الإلياذة والأوديسا) للشاعر اليوناني (هوميروس) من أبرز تلك الرّوايات الأدبيّة التي تتحدّث عن عدد من الحروب الّتي وقعت في تلك الفترة الزمنيّة ومن ضمنها معركة (طروادة)»[1].

قد يكون من الصعب إحصاء الأعمال الأدبيّة التي تناولت الحروب، غير أنّ دراسة سريعة لتطوّر هذا النّوع من الأدب تظهر الدور البارز للأدباء والمثقفين في مناهضة الحروب من خلال كتاباتهم، لا سيما في الفترة المعاصرة «فالرّوائي الفرنسي الشهير ستاندل (1783- 1842) الّذي كان يعدّ مقاتلاً شرساً في صفوف قوات نابليون، ينتقد في روايته (الأحمر والأسود) بشدّة وبسخرية بارعة، تلك الاستعدادات العسكرية للحروب التي شهدتها القارة الأوروبيّة»[2].

[1]- مهدي يزداني حزم، الأدب في مواجهة الحرب (أحياء إلى الأبد)، مجلة الإنساني، بعثة اللّجنة الدوليّة، القاهرة، العدد 54، 2012، ص 76.

[2]- مهدي يزداني، المرجع نفسه، ص 77.

كما عبّر الرّوائي الإسباني الشهير (سرفانتيس) الذي يعتبر أب الرواية الحديثة في القارة الأوروبية في روايته الملحمية (دون كيشوت) عن انطباعه بحتمية نهاية الحقبة التي كان يتم فيها استخدام أولئك المحاربين، كما «أجبرت تلك الحروب الكاتب (فيكتور هوغو) على تخصيص قسم كبير من روايته (البؤساء) لشجب المعارك الدامية»[1].

في الوقت الرّاهن أصبح الأدب العالمي منبرا للتّعبير عن آمال وتطلّعات ضحايا الحروب الدمويّة هنا وهناك، يقول القاصّ (سعيد الكفراوي): «إنّ العلاقة بين الأدب وحقوق الإنسان علاقة قديمة قدم الأدب نفسه، فالأدب الجيّد على طول تاريخه كان المبشّر بحق الإنسان في الحرية وفي السعي نحو المعرفة، منذ بدأ التاريخ ونشأة علم الفلسفة والوعي بالفكر، كانت منظومة حقوق الإنسان هي الهدى والمسعى»[2].

2- الحرية:

شكّلت قضية الحرية أحد الأسئلة الأساسية في الفكر الإنساني، فهي شرط مهمّ وضرورة ملحّة للوجود الإنساني على المستوى الفردي والآخر الجمعي، وكثيراً ما طرحت هذه القضية مع الفلسفات المعاصرة خاصّة الوجوديّة، حيث تذهب إلى أنّ الحريّة ليست مجرّد صفة للوجود الإنسانين بل هي قوام هذا الوجود، كما تنظر إليها على أنّها جوهر الحياة الإنسانيّة.

ففي أعمال (سارتر) ومنها (مسرحية الذّباب) يتناول قضية الإرادة الحرّة، فهو يقوم من خلالها بطرح عدّة أسئلة حول حرية الإنسان في اتّخاذ القرارات يصل إلى حدّ سؤاله وبحثه في ما وراء الطبيعة، ورواية (دروب الحرية) و(المثقفين) التي تدعو إلى الحرية المطلقة لكن بطريقة مختلفة عن المعهود، إنّها الحرية الجنسيّة فسواء «أكانت هذه المواقف مظهرا من مظاهر الانهيار الخلقي الذي

[1]- مهدي يزداني حزم، الأدب في مواجهة الحرب (أحياء إلى الأبد)، ص 77.

[2]- صحيفة الخليج، 18 يونيو 2021.

يعانيه المجتمع الأوروبي، أم مجرّد تعبير عن الحرية المطلقة، فكلّها روايات تغنّت بحرية الإنسان الفردية بعيداً عن المعتقدات والقيود الاجتماعية»[1].

وربّما ارتبطت الحرية بموضوع أدبي آخر وهو التمرّد ففي كتاب (الإنسان المتمرّد) لألبير كامو أعلن فيه «أنا أتمرّد إذن أنا موجود»[2] وقد ظهرت هذه المقولة بوضوح في كتاباته الروائية والمسرحية كـ(الغريب) و(حالة حصار). يعرّف (كامو) التمرّد على النّحو التالي: «الإنسان هو الكاتب الوحيد الذي يرفض أن يكون على ما هو عليه، أو بمعنى آخر هو الكائن الذي لا يرضى أبداً عن كيانه، فهو دائم السعي إلى تغييره والعلوّ عليه»[3].

إنّ تجربة التمرّد عند (ألبير كامو) هي نفسها تجربة العبث، فالتمرّد الميتافيزيقي والإنسان العبثي كلاهما يعاني من الانفصال، كلاهما غير متناغم مع عالمه، وإذا أسقطنا نظرته هذه نحو الفن وجدناه يقول في كتابه (الإنسان المتمرّد): «الفن أيضاً هو هذه الحركة التي تمجّد وتنكر في وقت واحد»[4].

3- العدالة:

طرحت العدالة الاجتماعية كموضوع أساسي في الأدب منذ الثورة البلشفية، لكن الشيوعية الّتي ظهرت في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر وجدت لرجال السياسة والأدب والفكر والفلسفة كما لو أنّها قادرة على محو الفوارق الطبقية، وإرساء العدالة الاجتماعية، وبناء مجتمع سليم من التشوّهات والأمراض، تحولت عند تطبيقها إلى كابوس، فكانت النتيجة: أنظمة استبداديّة ومعسكرات اعتقال ومحتشدات ومجازر فظيعة. ولعلّ (دوستويفسكي) أوّل من أشار إلى كون الاشتراكية الشيوعيّة ليست صعبة التحقّق فقط، وإنّما قد تؤدّي إلى كوارث لا يُحمد عقباها، ففي

[1]- إبراهيم زكريا، الرواية الوجودية بين الفلسفة والأدب، مجلة الآداب، بيروت، لبنان، ع3، 1963، ص 371.
[2]- ألبير كامو، الإنسان المتمرّد، تر: نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1983، ص 18.
[3]- عبد الغفار مكاوي، ألبير كامو (محاولة لدراسة فكره الفلسفي)، دار المعارف، القاهرة، 1946، ص 11.
[4]- ألبير كامو، الإنسان المتمرّد، ص 21.

روايته (الممسوسون) يتناول الكاتب علاقة التنظيمات الثورية المطلقة بالطبقة الأرستقراطية في الإمبراطورية الروسية، إنّها رواية تدين التغيير الذي يحدث سفك الدم وإحراق المنازل، وتعدّ نبؤة كتبها (دوستويفسكي) متحدّثا عن سلبيات الثورة البلشفية قبل وقوعها.

ومنه فإنّ السياسة تعدّ محورا فكريا من أهمّ العناصر التي اعتمد عليها الأدب –والرواية على وجه الخصوص– «طالما وجد الأدب نفسه داخل مجتمع معيّن، يعبّر من خلاله عن دوره وحقوقه ومكانته، ويبحث بشكل دائم عن حريته وإنسانيته»[1].

4– الاغتراب:

رصدت الآداب العالمية أزمات الإنسان الوجودية واغترابه في ظل عالم معاصر يموج بالفردانية والنّفعيّة وما نشأ عنه من أزمات سيكولوجية وسوسيولوجية متفاقمة، فقد كانت مهمة الأدب الوجودي تتمحور حول فكرة الاغتراب.

ففي كتابات (سارتر) تعبير عن حالة القلق الوجودي الذي انتاب الإنسان نتيجة ماديّته المفرطة، فنظرته إلى الآخر تشاؤمية يقول سارتر: «الغير هو الموت المستور لإمكاناتي وسقوطي هو وجود الغير»[2]، فالوجودي يفهم الاغتراب على أنّه «اغتراب الموجود البشري عن وجوده العميق، بحيث لا يكون ذاته وإنّما مجرد صفر على الشمال في الوجود الجمعي للجماهير»[3].

وما زال الأدب في الغرب يسعى للتّخفيض من حدّة هذا الاغتراب كما يسعى لاستعادة الاستمتاع بالحياة كحقّ رئيسي من حقوق الإنسان والتّخفيف أيضاً من شعوره بسطوة المادّة وتحكّمها في كل تفاصيل الحياة.

---

[1]– صالح سليمان عبد العظيم، سوسيولوجيا الرواية السياسيّة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1998م، ص 30.

[2]– نقلا عن: عبد القادر عبد الحميد زيدان، التمرّد والغربة في الشعر الجاهلي، دار الوفاء، الإسكندرية، د.ت، ص 23.

[3]– جون ماكوري، الوجودية، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة: فؤاد زكريا، المجلس الوطني للفنون والآداب والثقافة، الكويت، 1982، ص 225.

كانت الرّواية هي الأبرز في مواجهة الاعتداءات الكثيرة على حقوق الإنسان، إنّها قارئ ممتاز لحياة النّاس ومعبّر جيّد عن همومهم وأحلامهم وطموحاتهم، كما أنّها وعلى مرّ تاريخها تقريبا تخاطب فيهم رغبتهم الدّائمة في الانعتاق والتحرّر... فالرّواية – بشكل خاص– يمكن التعامل معها على أنّها سجّل ثريّ يسجّل ببراعة الأصداء النفسيّة والاجتماعية والسياسية للنّاس، خاصّة بعدما ارتبطت أكثر بالواقع مع الأزمات الوجوديّة العميقة التي مرّت بها البشرية بعد الحربين العالميتين.